



شرح كتاب
الفتن وأشراط الساعة
من صحيح مسلم



باب لا تقوم الساعة
حتى يحسر الفرات عن جبل من ذهب

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

((بَابٌ لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يَحْسِرَ الْفَرَاتُ عَنْ جَبَلٍ مِنْ ذَهَبٍ :

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الْحَارِثِ بْنِ نَوْفَلٍ، قَالَ: كُنْتُ وَاقِفًا مَعَ أَبِي بْنِ كَعْبٍ فَقَالَ: لَا يَزَالُ النَّاسُ مُخْتَلِفَةً أَعْنَاقُهُمْ فِي طَلَبِ الدُّنْيَا. قُلْتُ: أَجَلٌ. قَالَ: إِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: يُوشِكُ الْفَرَاتُ أَنْ يَحْسِرَ عَنْ جَبَلٍ مِنْ ذَهَبٍ، فَإِذَا سَمِعَ بِهِ النَّاسُ سَارُوا إِلَيْهِ، فَيَقُولُ مَنْ عِنْدَهُ لَيْنُ تَرَكَنَا النَّاسَ يَأْخُذُونَ مِنْهُ لِيَذْهَبَنَّ بِهِ كُلَّهُ، قَالَ: فَيَقْتُلُونَ عَلَيْهِ، فَيُقْتَلُ مِنْ كُلِّ مِائَةٍ تِسْعَةٌ وَتِسْعُونَ». قَالَ أَبُو كَامِلٍ فِي حَدِيثِهِ قَالَ وَقَفْتُ أَنَا وَأَبِي بْنُ كَعْبٍ فِي ظِلِّ أُجْمِ حَسَّانَ))

وذهب بعض العلماء إلى أنه يقع في زمن عيسى بن مريم عليه السلام؛ لأنه الزمن الذي يفيض المال بين أيدي المسلمين، قالوا: ومن ذلك ظهور هذا الكنز، ولم يرد في النصوص -في الحقيقة- ما يدل على التحديد، لكن يبدووا -والله أعلم- أنه قريبٌ من نزول عيسى عليه السلام، وليس بعد نزول عيسى عليه السلام، لأن المؤمنين بعد نزول عيسى عليه السلام مع عيسى عليه السلام وهم في خير، ولا تحصل لهم هذه المقتلة، وإنما ذلك فيما يظهر لي -والله أعلم- قبل نزول عيسى عليه السلام.

وقوله في الحديث: ((لَا يَزَالُ النَّاسُ أَعْنَاقُهُمْ مُخْتَلِفَةً))، وفي رواية: ((لَا يَزَالُ النَّاسُ مُخْتَلِفَةً أَعْنَاقُهُمْ فِي طَلَبِ الدُّنْيَا)) وهو قول أبي بن كعب. قال العلماء: الأعناق هنا المراد بهم: الأمراء، والكبراء، والأثرياء، لا يزالون يستكثرون من الدنيا مع ما عندهم من الدنيا. وقال بعض أهل العلم: لا، المراد بالأعناق: أعناق الناس عموماً، فإنَّ الإنسان يحب أن يستكثر من الدنيا.

((عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْعَتِ الْعِرَاقُ دِرْهَمَهَا وَقَفِيزَهَا، وَمَنْعَتِ الشَّامُ مُدِّيَهَا وَدِينَارَهَا، وَمَنْعَتِ مِصْرُ إِرْدَبَهَا وَدِينَارَهَا، وَعُدْتُمْ مِنْ حَيْثُ بَدَأْتُمْ، وَعُدْتُمْ مِنْ حَيْثُ بَدَأْتُمْ، وَعُدْتُمْ مِنْ حَيْثُ بَدَأْتُمْ». شَهِدَ عَلَى ذَلِكَ لَحْمُ أَبِي هُرَيْرَةَ وَدَمُهُ)) .

الله المستعان.

هذا الحديث علامة من علامات قيام الساعة الصغرى. ساق النبي صلى الله عليه وسلم الخبر بصيغة الماضي، وهو إخبارٌ عمّا يُستقبل لِتَحَقُّقِ الْوَقُوعِ. ولذلك ماذا قال أبو هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في آخر الحديث؟ قال: "شهد على ذلك لحم أبي هريرة ودمه"، ونحن نشهد على ذلك، فإن النبي صلى الله عليه وسلم أخبر به، وما أخبر به النبي صلى الله عليه وسلم لا يكون إلا حقاً.

في هذا الحديث إخبارٌ عن المستقبل، فالنبي صلى الله عليه وسلم قال ذلك، وهذه البلدان كلها بلاد كفر، لم تُفتح، العراق والشام ومصر، ومع ذلك النبي صلى الله عليه وسلم يقول: إنها «مَنْعَت»؛ معنى ذلك أنها أعطت، ثم مَنْعَت، وفي هذا إشارة إلى أنها ستُفتح، وقد فُتحت.

قوله: «مَنْعَتِ الْعِرَاقُ» يعني: أهل العراق، وقيل في معنى هذه الجملة: أنه تكون عليهم الجزية لعدم إسلامهم، يعني أنه عند فتح العراق يبقى أقوام من أهل العراق لا يُسلمون، ويرتضون الجزية، فتنرض عليهم الجزية، فإذا خالطهم المسلمون وعرفوا الإسلام أسلموا، فإذا أسلموا سقطت الجزية، وعلى هذا يكون في ذلك إخبارٌ بإسلام أهل العراق، وأهل الشام، وأهل مصر.

وقيل إن منعها ذلك بسبب استيلاء الكفار عليها في آخر الزمان، وفي ذلك نذارة أن هذه الديار سيستولي عليها الكفار، ويأخذها الكفار من أيدي المسلمين، وبالتالي يُمنع الخير الذي كان يأتي منها للمسلمين.

وقد روى مسلم عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: "يوشك أهل العراق ألا يُجَبى إليهم قفيز ولا درهم، قلنا: من أين ذلك؟ قال: من قبل العجم يمنعون ذلك، ثم قال: يوشك أهل الشام ألا يُجَبى إليهم دينار ولا مَدِي، قلنا: من أين ذلك؟ قال: من قبل الروم"¹.

والعجم: قيل إنهم هم الروم، وقيل: إنهم طائفة من الروم، وقيل: قوم غير الروم وغير فارس يتكلمون بغير العربية.

في هذا الحديث جابر رضي الله عنه يُخبر عن شيء، لكن هذا الإخبار له حكم الرفع، لأنه إخبار عن أمرٍ مستقبل، فقال: "يوشك أهل العراق ألا يُجَبى إليهم قفيز ولا درهم، قلنا: من أين ذلك؟ قال: من قبل العجم يمنعون ذلك" أي: أن العجم يستولون على العراق فيمنعون ذلك. وقال بعض أهل العلم: معناه أن الكفار الذين عليهم الجزية تقوى شوكتهم في آخر الزمان، فلا تدفع جزية للمسلمين، وها هو اليوم، لا تدفع جزية للمسلمين، لأن شوكة الكفار قد قويت، وضعفت شوكة المسلمين.

والقفيز: مكياًل معروف لأهل العراق، قال العلماء هو: اثنا عشر صاعاً. وأما المَدِي، أو المَدُّ على وزن قُفْل أو المَدِي على وزن فَعَل: هو مكياًل معروف لأهل الشام، قال العلماء هو: اثنان وعشرون صاعاً ونصف. وأما الإزْدَب: فمكياًل معروف عند أهل مصر، لا يزال الفلاحون يعرفونه إلى اليوم، قال العلماء: يسع أربعة وعشرين صاعاً.

قال النبي صلى الله عليه وسلم: «وعدتم من حيث بدأتم»؛ قال النووي رحمته الله: هو بمعنى الحديث الآخر: «بدأ الإسلام غريباً وسيعود كما بدأ»².

(1) أخرجه مسلم (2913) في كتاب: الفتن وأشراط الساعة، باب: لا تقوم الساعة حتى يمر الرجل بقبر الرجل فيتمنى أن يكون مكان الميت من البلاء.

(2) أخرجه مسلم (145) في كتاب: الإيمان، باب: بيان أن الإسلام بدأ غريباً وسيعود غريباً. من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

قال الحافظ ابن عبد البر -مبيّنًا معنى هذه العودة-: "وإنما صار أول هذه الأمة خير القرون؛ لأنهم آمنوا حين كفر الناس وصدقوه -صدقوا النبي صلى الله عليه وسلم- حين كذبه الناس، وعزروه، ونصروه، وآووه بأموالهم وأنفسهم، وقاتلوا غيرهم على كفرهم حتى أدخلوهم في الإسلام، وقد قيل في توجيه أحاديث الباب مع قوله: «خير الناس قرني»، إن قرنه إنما فضل لأنهم كانوا غرباء في إيمانهم لكثرة الكفار، وصبرهم على أذاهم، وتمسكهم بدينهم -مع قوة الكفار-، وإنّ آخر هذه الأمة إذا أقاموا الدين وتمسكوا به وصبروا على طاعة ربهم في حين ظهور الشر، والفسق، والهرج، والمعاصي، والكبائر كانوا عند ذلك أيضا غرباء"¹.

إذن؛ ما معنى «وعدتم من حيث بدأت»؟ أي: عدتم قلة وسط كثرة، فعاد المسلمون قلة وسط كثرة الكفار، وعدتم ضعفاء مع قوة عدوكم، وعاد المتمسك بدينه قليلا مع كثرة الكفار، وعاد المتمسك بالطاعة قليلا مع كثرة العصاة، فهذا معنى «وعدتم من حيث بدأت».

قال بعض العلماء: "عدتم في قلة كما كنتم في قلة"؛ يعني عدتم من حيث بدأت؛ عدتم في قلة وقد بدأت في قلة.

وقال بعض العلماء: عاد الإسلام محصورا في المدينة كما بدأ في المدينة.، كان الإسلام عند هجرة النبي صلى الله عليه وسلم محصورا في المدينة، ومعنى «عدتم من حيث بدأت» أي: عاد المسلمون في المدينة، وحُصروا فيها.

وقد جاء في الحديث عند مسلم: «بدأ الإسلام غريبا وسيعود غريبا كما بدأ، وهو يأرز بين المسجدين كما تأرز الحية إلى جحرها»² أي: يعودوا بين المسجدين. وفي الرواية الأخرى: «إن الإيمان ليأرز إلى المدينة كما تأرز الحية إلى جحرها»³.

(1) التمهيد لابن عبد البر: (20/251-252)

(2) أخرجه مسلم (146) في كتاب: الإيمان، باب: بيان أن الإسلام بدأ غريبا وسيعود غريبا وأنه يأرز بين المسجدين. من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

(3) أخرجه البخاري (1777) في كتاب: فضائل المدينة، باب: الإيمان يأرز إلى المدينة. من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

فهذا الحديث فيه بشارة وفيه نذارة؛ ففيه بشارة بفتح العراق، والشام، ومصر، وأنّ الخير سيخرج منها للمسلمين، وقد خرج الخير منها للمسلمين، فكانت الأرزاق تخرج من العراق، ومن الشام، ومن مصر، إلى جميع بلدان المسلمين.

وفيه نذارة بأنّ هذا الخير سيُمنع، والأغلب أنّ هذا الخير يُمنع بسبب استيلاء الكفار على هذه الديار.

وبعض أهل العلم قال: هذا الحديث فيه بيان أنّ حقوق المسلمين ستُمنع من غير بيان السبب، بعض العلماء يقول: السبب لم يُعيّن في الحديث، لكن المتعيّن أنّ حقوق المسلمين ستُمنع في آخر الزمان، وحقوق المسلمين اليوم تُمنع كثيرا من قبل تسلط أعدائهم على خيرات المسلمين.



